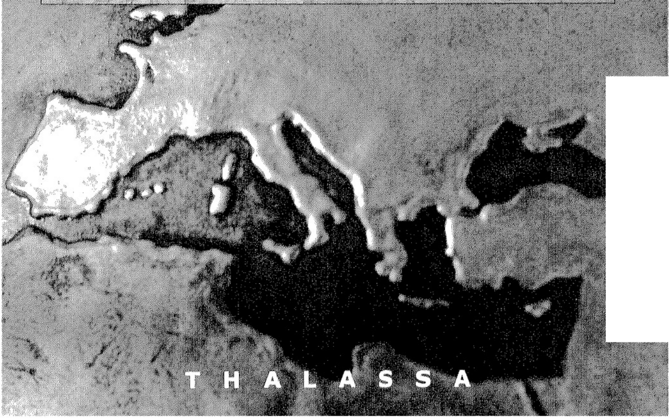
تأمّلات
البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط التونسي

الصادق بو بكر
آمنة بلحاج يحيى



THALASSA

تصوّرات البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط التونسي

الصادق بو بكر

آمنة بلحاج يحيى

جزء ب

معين التاريخ لأهل التاريخ

تصورات البحر الأبيض المتوسط

برنامج أبحاث بإشراف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان

منسق البرنامج : فرانسوا سيينو
سكرتيرة التحرير : جيزيل سايماندي
منسقة النسخة العربية : ماري تريز زهر

رعى البرنامج كل من :
الاتحاد الأوروبي
وزارة الخارجية الفرنسية
المؤسسة الأوروبية للثقافة
مؤسسة رينيه سايدو للعالم المتوسطي
منطقة بروفانس آلب كوت دازور
مقاطعة بوش دي رون

شكر خاص لمؤسسة الملك عبد العزيز في الدار البيضاء
وللجامعة اللبنانية في بيروت لاستقبالهما

الغلاف :
خارطة محمد الإدريسي وهو جغرافي عربي توفي سنة ١١٦٦ .

تم نشر هذه المجموعة أولا باللغة الفرنسية في
دار ميزونوف إي لاروز Maisonneuve & Larose
أما الترجمة إلى العربية فهي بالتعاون مع
مؤسسة كونراد أديناور وتحت إشرافها

Konrad
-Adenauer-
Stiftung

تـــصـــوّرات
البـحر الأبـيـض المتــوسط

باشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

المتوسّط التونسي

الصادق بوبكر

آمنة بلحاج يحيى

T H A L A S S A

الصادق بوبكر / آمنة بلحاج يحيى

المتوسط التونسي – بيروت : منشورات تالاسا ۲۰۰۳

Printed in Lebanon

DYNAMIC GRAPHIC
ISBN: 9953-422-44-3

الصادق بوبكر

البحر المتوسط في عيون التونسيين

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

لقد وُلد المتوسط في أذهان البشر من مسافرين وسياسيين وعسكريين وتجار ... وعندما كان هذا البحر في قلب الحضارات الكبرى، لم يسع أحدٌ لِنَعته باسم واحد : لقد كان يُنظر إلى هذا البحر آنذاك بصفته كيانا تعدديّا وقد حاول الناس أن يجعلوا منه وحدة مجردة منذ بروز الملاحة البخاريّة وتقلص المسافات – الزمنية على المستوى الكوني وبداية تشكل الجغرافيا الوصفية – ومنذ قرابة النصف قرن، أفضى التصور البروديلي (نسبة إلى فرنان بروادل) لمجال متوسطي ذي أوضاع متفاوتة ومسكون في الوقت نفسه بهواجس عميقة ومشتركة إلى بروز متوسط تاريخي واليوم يسعى المخططون من سياسيين واقتصاديين وبيئيين ومثقفين ... إلى تحويله إلى مفهوم اقتصادي وجيو–سياسي وإزاء مثل هذا الرّهان، يبدو لنا من المشروع التساؤل عن جدوى مثل هذا التصوّر : فهل سيكون متوسط الغد هو نفسه متوسط اليوم ؟ علما بأن البلدان المحيطة به لم تحمل عنه نفس التصور على امتداد القرون الماضية. إن محاولتنا تتمثل في استعادة التصورات المتعاقبة للمتوسط في تونس وذلك منذ العصر الحديث إلى أيامنا هذه. وسوف يعتمد تمشينا في مرحلة أولى على استنطاق المصادر لعلنا نظفر منها على تصوّر معيّن، أما في مرحلة ثانية، فسنسعى إلى تبيان أهميّة المجال البحري (الذي يطل عليه البلد من الشمال ومن الشرق) في الحياة السياسيّة التونسية، وفي مرحلة أخيرة، نتساءل عن المنطق الاقتصادي والاجتماعي التعددي الكفيل باقناع المجموعة الوطنية بمشروعية فكرة صياغة تصوّر جديد للمتوسط.

المتوسط في نظر المصادر

يبدو البحر (نقصد المتوسط) في المدوّنة المصوّرة والأدبيّة المتوفرة لدينا عن العصر الحديث حاضرا بهذا القدر أو ذاك حسب شواغل المؤلفين. وسوف نميّز من باب التيسير البيداغوجي بين

صنفين من الوثائق المرجعية : المصادر الجغرافيّة والخرائطية من جهة والمصادر الإخباريّة من جهة ثانية.

المصادر الجغرافية والخرائطية

ابن خلدون

ألهمت مقدمة ابن خلدون أغلب الكتّاب والمثقفين التونسيين في العصر الحديث. وقد تطرّق المؤلف في الجزء الأول من كتابه إلى الحضارات والثقافات، ووصف أرضا مقسمة إلى سبع مناطق مناخية بأقاليمها المختلفة وأنهارها وبحارها. وقد ضمّن ابن خلدون كلامه لوحة عن المتوسط نقلها عن بطليموس والادريسي اللذين اعتمدهما في الكثير من الأحيان. وللمتوسط في العالم الخلدوني (بحر الروم أو بحر الشام) مكانة معتبرة في الاقليمين الثالث والرابع[1] والوصف الذي رسمه ابن خلدون للمتوسط ينطوي على المزج بين الحدود الجغرافية والمعايير الحاسيّة الثقافية التي تقسّم المنطقة إلى نصفين. ووفقا لهذه الرؤية، كان المتوسط محشورا بين مضيقين : يسمى الأول بالزقاق (معبر ضيّق) ويربطه بالبحر المحيط أي المحيط الأطلسي. ويقع هذا المضيق على حافتي طنجة وطريف، أما المضيق الثاني فهو مضيق بيزنطة (خليج القسطنطينية) الذي يصل العالم الذي نتحدث عنه ببحر نطيش أو بحر بنطش (البحر الأسود). وبين هذين الممرين، يصبح البحر واسعا، ويحتوي على سلسة من الجزر المتفاوتة فيما بينها مساحة وسكانا : قبرص، كريت، صقلية، ميورقه، سردينيا. إن هذا المجال هو ما يسميه ابن خلدون بـ «البحر الرومي» «المعروف» (ص ٣٦) أو «البحر الشامي». ويتفرع عن هذا البحر بحران آخران هما بحر نيطش (البحر الأسود) و«بحر البندقية» وبذلك يكون هذا الفضاء البحري مسيّجا بثلاث حواف ساحليّة : السّاحل الشامي والسّاحل الجنوبي، أي ساحل بلدان «المغرب» (من طنجة إلى الاسكندرية مرورا بافريقية وبرقة)، أما السّاحل الثالث، فيوضعه ابن خلدون

على الحافة الشمالية : بيزنطة، البندقية، الساحل الروماني (روما)، فرنسا الجنوبية وأخيرا الأندلس وتمتد حتى طريف قبالة طنجة.

تكثيفا للقول، إن متوسط ابن خلدون هو المتوسط الذي يعرفه المقلمون في عصره، أي ذلك البحر التعددي الذي يعج بالخلجان والمدن، لكنه أيضا ذلك البحر الذي يضم مجموعتين بشريتين متميزتين : ضفة شمالية (غرب بيزنطة) ذات أغلبيّة مسيحيّة وضفّة شرقيّة وجنوبيّة ذات أغلبيّة مسلمة.

لقد أبرز ابن خلدون من خلال وصفه الربوع التي تتألف منها «المناطق» (المناخية) وجود أقاليم جغرافية متطابقة ومنذ ذلك التاريخ مع الكيانات السياسيّة القائمة (أو تلك التي ستصبح كذلك لاحقا). وهذا ما كتبه المؤلف عن الجزء الثاني من المنطقة المناخية الثالثة :

> «وعلى ساحل البحر بلد بونة ثمّ في سمت هذه البلاد شرقا بلاد افريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثمّ السوسة ثمّ المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة ونفزاوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة وعلى سمت هذه البلاد كلّها شرقا بلد طرابلس...»(٢)

وهكذا تكون ملامح هذه الايالة العثمانية (تونس) قد رسمت قبل الأوان وهذا مجال لإعمال التفكير حول أركيولوجيا الفضاءات السياسية الموجودة على السّاحة اليوم.

آل الشرفي من صفاقس : سلالة من الخرائطيين «التونسيين» :

على امتداد ثلاثة أجيال على الأقل وفي الفترة بين القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر عاشت في صفاقس أسرة من الخرائطيين هم آل الشرفي ومن بينهم، نعرف خاصة علي بن أحمد بن محمد الشرفي (مطلع القرن السادس عشر – السبعينات) وابنه محمد بن علي الشرفي (النصف الثاني من القرن السادس عشر

– مطلع القرن السابع عشر)[٣]. وقد ألّف علي الشرفي الأب «أطلسا بحريّا موجزا» (١٥٥١) احتوى على خارطة لنصفي الكرة الأرضية، وسلسلة من الخرائط لجهات المتوسط تمسح المنطقة من السّاحل الاسباني إلى مضيق جبل طارق والبحر الأسود وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وبرقة، كما احتوى على خارطة أخرى تمثل المنطقة الشرقية الممتدة بين برقة وطرابلس وتونس وصقلية، أما اليونان وجزر الأرخبيل وكريت والسواحل الشمالية لافريقية، فقد أفرد لها خارطة موحّدة. ومن بين أعمال هذا الخرائطي توجد خارطة للعالم مؤرخة في ١٥٧١ (ونسخة مؤرخة في ١٥٧٩). ويشير علي الشرفي إلى أنّه استلهم أعمال أبيه وجدّه. وقد نقلت بعض التفاصيل المتعلقة بالمدن والمرافئ عن خبراء مقيمين في اسطنبول وخاصة منهم أبي العباس أحمد الأندلسي. وقد نسخ ابنه محمد الشرفي عام ١٦٠٠–١٦٠١ عن أبيه خريطته عن العالم.

إن القاسم المشترك بين هذه التصورات الخرائطية المختلفة هو وضعها للمتوسط في قلب العالم وفق المنهج الإدريسي والخلدوني. وعلى الرّغم من ذلك، يبدو أن الغاية من وضع تلك الخرائط هي ’تيسير السّفر عبر بحر الشام‘ (حسب عبارة المؤلف) وليست خدمة لأغراض عسكرية أو حتى لاشباع طموح كان يحدو الخرائطي نفسه. الواضح أن الغرض إذن من تصوّر آل الشرفي للمتوسط هو تجاري أساسا، فكل البقاع التي وضعت لها خرائط كانت تمثّل مناطق اقتصادية، ومجموعها يمثل مسالك بحرية متناغمة.

لقد أبرز علي الشرفي في وصفه للدائرة المتوسطية سبع عشرة منطقة، يتطابق معظمها مع خلجان بها مدن ساحلية ومرفئية وقد أكّد علاوة على ذلك، على النُّتُوءات والأماكن التي تشكّل خطرا على المراكب لما بها من صخور بارزة على السطح. وقد تميّز عن ابن خلدون في كونه أدمج منذ البداية بحر كافا (البحر الأسود) في الفضاء المتوسطي. هكذا، يبدو متوسط الشرفي من وجهة نظر جغرافية بحرا معروفا أكثر بكثير ممّا كان عليه في القرنين

السّابقين، كما يبدو على الأخص أكثر انفتاحا على التجّار. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر، يبدو أن انتعاش الظروف الاقتصادية قد جاء ليؤكد التمشي الذي توخاه الخرائطيون الصفاقسيون.

المصادر الأدبيّة

الإخباريوّن

تظل مدوّنات الإخباريين أحد أهم المصادر الرئيسية لتاريخ الايالة التونسية بين القرن السادس عشر وأواسط القرن التاسع عشر. وقاسمها المشترك أنّها كتبت بطلب من أصحاب السلطة لغرض البحث عن الشرعيّة السياسيّة، لذلك لا تمثل الاعتبارات الجغرافية إلا هاجسا ثانويا بالنسبة إلى أصحابها. ويفاجأ قارئ هذه السّرديّات بندرة الأوصاف المتعلقة بالفضاء السياسي والجغرافي للبلاد. وعندما يعثر المرء على بعض المعطيات من هذا النوع، فإنّه يكتشف أنّها تهم البر أكثر ممّا تهمّ البحر. فعلى سبيل المثال، نجد إحالات على مراجع قروسطية (إدريسية أو خلدونية) لدى ابن أبي دينار، وهو أقدم الإخباريين التونسيين (النصف الثاني من القرن السابع عشر)[٤] فموقع تونس بالنسبة إليه «في الجزء الثاني من المنطقة المناخية الثالثة» (ص ٧)، كما أن «إفريقية» لم تعد بالنسبة إليه سوى البلد الواقع بين «وادي الطين ومدينة باجة» (ص ٢٠).

إجمالا، لا يمثل البحر بالنسبة إلى الإخباريين التونسيين حدودا للسيادة السياسية للسلالات المرادية والحسينية. ومقولة المياه الإقليمية، التي لا يزال ظهورها محتشما في أوروبا في نفس العصر – غائبة في كتاباتهم. وعندما بدأت إيالة تونس تتدرّج نحو تكريس شرعيّتها التاريخية، بدأ مؤرخوها ينزعون إلى تناسي انفتاح البلاد على البحر. فهل يعود ذلك إلى الأصول الريفية لبعضهم أو لانتماء البعض الآخر إلى مدن داخل البلاد (ذات

العلاقة المحدودة بالاقتصاد البحري) ؟ لا ننسى أنّ سكان الإيالة العثمانية آنذاك كانوا في غالبيتهم من القبائل الزراعيّة والرعويّة أما الحضر، فكان عددهم قليلا، والمدن الساحليّة لم تكن كلّها مدنا مرفئية. ولم يتسنّ لنا العثور على وثيقة بها رسم لحدود «المملكة الحسينية» إلا بعد سقوط البلاد تحت الحكم الجمهوري الفرنسي. وقد أفرد بيرم التونسي في مؤلفه «صفوة الاعتبار» (١٨٨٤) أهمية خاصة للحدود البحريّة عند وصفه للسّواحل والنتوءات البحريّة والخلجان والجزر والمدن البحريّة التونسيّة(٥).

ولم يكن المتوسط في نظر أغلب الإخباريين التونسيين مجرّد حدود، وإنّما كان أيضا حدّا طبيعيا. أما التقسيم الرئيسي، فيظل ثقافيا قائما على التعارض بين «دار الإسلام» (أي العالم الإسلامي) و«دار الحرب» (أي الغرب المسيحي). وسوف يبقى هذا التقسيم التناحري راسخا في تصورات المجال المتوسطي، وإن كان لا يتطابق مع الجغرافيا الدينية التعدديّة للإمبراطوريّة العثمانية.

المخيال الأدبي

لم يكن البحر بالنسبة إلى الأدباء التونسيين مصدر إلهام متمين، فهم على غرار الإخباريين، لا يذكرونه إلا لماما. ويندر العثور على مواضيع لها علاقة بالبحر أو بالمتوسط في الأدب الحديث والمعاصر باستثناء الشعر.

زمن القراصنة أو «الجهاد البحري»

لم يرد ذكر البحر في كتابات الإخباريين إلا زمن صعود القرصنة. فقد استعمل ابن أبي دينار في معرض حديثه عن بداية القرن السابع عشر عبارات مثل : «ورزق سعادة في البحر لم يسمع بمثلها» (ص ٢٠٤– ٢٠٥) أو «ساعدته الأيام بالغنائم في البحر والهناء في البر» أو «وهو أحد من رأس في البحر لأنه قدم فيه قبطانا ورزق فيه السعادة التي لم يرزقها أحد من قبل» (ص٢١٠). أما الإحالة الأكثر شعريّة على البحر، فقد عثرنا عليها في الحلل

السنديّة في معرض رثاء الوزير السّراج لأسطا مراد الجنوي[٦]. فقد استحضر عند تعداده لعمليات الداي القرصنية ملحمة فرسان الصحراء. وعلى غرار الشعراء الجاهليّين الذين مجّدوا المآثر الحربيّة، روى الوزير السرّاج معارك القراصنة على متون مراكبهم:

«هذا مقام حفّه الإسعاد فيه استقر القابادون مراد

يا طالما ركب وجاءنا بغنائم عمدت بها الحسّاد.» [٧]

ويعود للسّراج سبق الحديث عن «الجهاد البحري» وذلك بمقارنته «للرياس» بالغزاة الذين مارسوا الجهاد المقدّس.

حجب البحر في القرنين التاسع عشر والعشرين

غاب البحر عن حيز اهتمامات المؤلفين التونسيين في القرن التاسع عشر، وهم بذلك لم يشذوا عن القاعدة التي اتّبعها أسلافهم. وهم يعتبرون في أحسن الحالات ذلك الفضاء السائل مثابة الحاجز أو بمثابة المسافة التي يجب قطعها للانتقال من مكان إلى آخر على السّاحل. فالمصلح خير الدين في أقوم المسالك لم يهتم بالبحر إلا للإشارة إلى الاكتشافات البرتغالية في القرن الخامس عشر بصفتها عاملا من عوامل نهضة أوروبا[٨]. أما ابن أبي الضياف، فلم يذكر البحر لذاته ولو مرّة واحدة. وعندما اهتم بالتجارة البحرية أو بالحروب البحريّة جاءت رؤيته رؤية رجل بريّ المنزع[٩]. أما المؤلفون المعاصرون فيبدو لنا أن القضايا الرئيسية التي استقطبت اهتمامهم هي أساسا تلك التي لها علاقة بمواضيع الهويّة والنزاعات الناجمة عنها في إطار العلاقة بالعالم العربي والامبراطورية العثمانية والإسلام وتونس وأوروبا. لا نجد في ما كتبوه إلاّ النزر اليسير عن المتوسط. وفي أحسن الحالات، لا يرد ذكر هذا البحر على ألسنتهم إلا بصفته رمزا للسلام والمصالحة وحتى للشهوانية[١٠]. وعندما تطرق البشير خريّف في روايته التاريخية برق الليل (صدرت عام ١٩٦٠) لعالم البحر، كان ذلك بهدف التذكير بالصراع بين خير الدين باشا وشارل كانت في تونس في العامين ١٥٣٤–١٥٣٥.

علي الدوعاجي أو ميلاد هويّة متوسطيّة :

إن «جولة بين حانات البحر الأبيض المتوسط» هي الرواية الوحيدة التي ارتقت بـ «المتوسطية» إلى مصاف الشأن الفكري[١١]. وتعكس هذه الرواية المناخ الثقافي المشحون بالعواطف المشوبة للثلاثينات، وهي الفترة التي ولد فيها الكتاب. وكان الإنتاج الأدبي التونسي قد طغى عليه منذ نهاية الحرب العالميّة الأولى الحوار المتعدّد الأشكال حول «الهوية». وقد انبثق ذلك الحوار عن تيار فكري عبّر عنه أكثر الكتّاب الاستعماريين محافظة، وهم أولئك المتشبثون بأن المغرب العربي وتونس هما أرض ثقافية لاتينية – مسيحيّة. وما زاد التعبير السياسي والأدبي تشنجا هو مئوية احتلال الجزائر من جهة وبروز الأفكار المنادية بالتحرير من الاستعمار من جهة ثانية. وقد بدأت بعض الأوساط الاقتصادية والمالية الأوروبيّة بعد أزمة ١٩٢٩ تشكّك في مردوديّة التصرف الاستعماري المباشر وقد أثار هذا الموقف حفيظة المدافعين عن الاستعمار التوطيني. وفي هذا المناخ، انعقد المؤتمر الافخارستي العالمي لقرطاج في تونس (٧–١١ مايو ١٩٣٠)، وكان احتفالا مهيبا يمكن أن ننعته اليوم بالسريالي، إذ حضره عشرة آلاف حاج ومائة أسقف وأربعة آلاف كاهن وثمانية أمراء كنيسة وقاصد رسولي ... ومن بين أبرز فقرات الاحتفال تلك التي التأمت في البلفيدير وجمعت خمسة آلاف طفل لبسوا لباس الصليبيّين وانتظموا على هيئة صليب. كما قام في قرطاج مئات الصليبيين الحاملين لأغصان النخيل باستعراض في المسرح الروماني أمام جمهور يعدّ أربعين ألف شخص[١٢]. لقد اعتبر السكان تلك الدعاية اللاّتينية المسيحيّة وكذلك بعض الإجراءات الأخرى التي اتّخذتها سلطات «الحماية» بمثابة «الصعقة الكهربائية» الثقافية والإعتداء عليهم. وكانت ردود فعل المجتمع المسلم متنوعة. وتمثل بعض المآثر الأدبية مثل مآثر الدوعاجي – وبقطع النظر عن الدوافع الذاتية التي كانت وراءها – جزءا لا يتجزّأ من ردود الفعل تلك. وقد روى الكاتب (وبشكل منقوص على ما يبدو)

رحلة قام بها في صيف ١٩٣٣. وكان في ما سرده بالنسبة إلى صنف من الشباب تصوّر جديد للمتوسط، إذ طَعَم حديثه عن تلك الرحلة البحرية التي نظمتها شركات ملاحة آنذاك (فرنسا، ايطاليا، اليونان، تركيا، مصر ...) بمعطيات عن الحضارات القديمة وبأخرى عن الشرق الحديث. وقد بدأ الدوعاجي رحلته الطويلة من تونس عبر فرنسا مرورا بكورسيكا. ويمكن القول إن الكاتب كان يروم التعرف إلى المنابع الثقافية الثلاثة التي كان يتحرك داخلها : الثقافة الفرنسية (والفرنسية بصفتها المفتاح اللغوي خلال رحلته الطويلة) المصدران (اللاتيني والإغريقي) للثقافة الأوروبية ثم الثقافة العربيّة – العثمانية التقليدية، وكذلك الثقافة التركية في صيغتها الجمهورية المستحدثة. ويثير بعض ما دوّنه الكاتب بشكل روائي بعض الملاحظات : لقد كان إطار الرواية هو البحر، إلا أنّ ذلك البحر لم يسجّل حضوره في الرواية إلا بصفته «دوار البحر» الذي أصاب الكاتب. وفي حياته اليومية، مثّل متوسط الدوعاجي حساسيّات متنوعة وارتباطات اجتماعيّة مختلفة اكتشفها الدوعاجي، لكن دون أن يتبنّاها بالضرورة. وهو وإن فضّل الكسكسي على «السباقيتي»، فهو يتحدث عن خمور البلدان المتوسطية الأخرى ونسائها حديث العارف الخبير. كما أن الدوعاجي كان يهتم في كل مرحلة من سفرته بالتراث الاركيولوجي والعمراني، وكأنّ الماضي الذي يشكل خلفية السّمات الثقافية المختلفة للمتوسط كان بالنسبة إليه بمثابة المفتاح لفهم الحاضر. إلا أنّ الروائي وفي مواضع مختلفة من سرديّته شدّد على صعوبة التواصل بين الكتلتين الثقافيتين والبشريتين للمتوسط، فالغرب يستعصي عليه فهم الشرق، والشرق لا يمكنه الاقتصار على تقليد الغرب. و«التغرّب» لا يعني بالنسبة إلى الدوعاجي فقدان الروح، وإنّما يعني تغيير أشكال التعامل مع الأوروبيين وكان حلمه هو إمكانية النّهل بعمق من الفضاءين الثقافيين، تماما كما يعيش رجل في زمانه مع امرأتين، إلا أنّه يعلم في قرارة نفسه أن الغرب يمنعه من التزوج بامرأتين، فضلا عن أن يمكنه من

الانتساب إلى ثقافة مزدوجة[١٣]. إن الثابت أن رواية الدوعاجي إبداع أدبي وليست مرافعة نقدية سياسية، ومع ذلك فهي تعكس الحيرة التي انتابت جزءا من النخبة التونسية أمام صعوبة الاختيار في قضيّة الهويّة بين المواقف المتعدّدة من الماضي والحاضر والمستقبل. وبعد بعض السنوات، أصبح الجدل الذي يهم العلاقة بين الوطن ومختلف المكونات الثقافية المتوسطية مشغلا سياسيا هامًا.

المتوسط في الحياة السياسية التونسية

لقد كانت للأحداث السياسيّة الحاسمة التي طبعت الحياة السياسيّة في تونس – ومنذ القرن السادس عشر على الأقل، علاقة (مباشرة أو غير مباشرة) بالمتوسط وقد مسّت أغلب تلك الأحداث السكان : زحوفات عسكرية، عمليات قصف بحرية، إدخال أوبئة، لكن كذلك هجرات جماعيّة وازدهار تجاري واستيراد تقنيات وأفكار جديدة ... وقد خلّف كل شكل من أشكال التماس آثارا في الذهنيات الجماعيّة سواء أنجمت عن تلك الأشكال ردود فعل فردية أم لا وسنحاول دراسة تأثير البحر من زاويتين : زاوية العلاقات العنيفة (الحروب والنزاعات) وزاوية نشر الأفكار وهي زاوية لا تقل ضراوة رغم طابعها الذي يبدو سلميًا.

البحر بصفته مصدرا دائما للخطر أو للعدوان العسكري :

إن التدخلات العسكرية من جهة البحر والتي أخلت بالتوازن السياسي داخل البلاد لا حصر لها، وذلك منذ العصر الحديث إلى اليوم.

مسرح المواجهات الدوليّة في القرن السادس عشر :

لقد عاش ما تبقى من حطام السلطنة الحفصية قرابة القرن من الزمن على وقع التدخلات المتتالية والمتعاقبة للعثمانيين

(قراصنة خواص أو أعوان للسلطان) وللاسبان (أو لحلفائهم الجنويّين والمالطيّين) : حلول الإخوة باربروس بالبلاد، احتلال خير الدين باشا لتونس، والإنزال البحري الذي قام به شارل كانت، ومناورات درغوث للإطاحة بالسلطان الحفصي، والمعارك البحرية قرب المهديّة، وحملات دون جوان النمساوي (١٥٧٣) ثم حملات سنان باشا (١٥٧٤) ... وكانت تونس مسرحا لكل هذه الأحداث (وهي من أهم الأحداث التي شهدها المتوسط في القرن السادس عشر). وقد وقعت إباحة العاصمة ونهبها ثلاث مرّات (١٥٣٤و ١٥٣٥ و١٥٧٣). ورغم مضي أكثر من قرن على تلك الوقائع، ظل السكان يتذكرونها بمرارة نظرا إلى ما انجرّ عنها من استقرار للأسبان على السّاحل قرابة النصف قرن، ومن سقوط السلطنة الحفصية، ومن غزو عثماني. وكانت كل تلك التدخلات تؤدي إلى الإخلال بالتوازن السياسي، علما بأن الأهالي كانوا منقسمين بين مؤيد للقادمين الجدد على غرار ممثلي السلطة المحليّة، ومناهض لهم.

خمسون سنة من النشاط القرصني الموفّق :

عاشت إيالة تونس في الفترة بين ١٥٨٠ و١٦٤٠-١٦٥٠ بنسبة كبيرة من مداخيل القرصنة. وكانت كل العلاقات الخارجيّة وخاصة مع الدول المسيحيّة رهينة استتباب الأمن في البحر. وكانت الإيالة تشن من حين لآخر حملات ضارية على السواحل المسيحية، لكنها كانت تخضع بدورها لهجمات الأساطيل الأوروبية وخاصة منها أساطيل جنوة ومالطة وطوسكانية ... وقد ظلّت الحمامات وحلق الوادي وجزر قرقنة وأماكن أخرى تحمل لمدة طويلة آثار تلك الهجمات. إن البحر لم يكن فقط مرادفا للنصر وإنما كان يمثل كذلك بالنسبة إلى السكان الخطر والخوف.

سياسات «الرّجم المدفعي» الأوروبية :

إن موقع تونس على طريق نصفي بين حوضي المتوسط

يجعلها عرضة لهجمات الأساطيل البحرية الأوروبيّة، وذلك في الفترة من أواسط القرن السابع عشر إلى فرض «الحماية» الفرنسية على البلاد (١٨٨٣). وكانت مدينة تونس تحاصر وتقصف انطلاقا من البحر في كل مناسبة يندلع فيها خلاف سياسي هام أو نزاع مفتوح مع بلد أوروبي، سواء أكان ذلك البلد محاذيا للمتوسط أم لا. والأمثلة غنيّة عن التعليق: حملة بلاك (١٦٥٣)، الحملات الاستعراضية للسفن الحربيّة إبان حكم لويس الرابع عشر بهدف فرض معاهدة أو تسريح سجناء ... وقد وقعت حربان في القرن الثامن عشر بين الإيالة وفرنسا (١٧٤١-١٧٤٢ و ١٧٧٠). وقد تزامنت الحرب الثانية مع «استعراض عضلات تمويهي» سياسي عسكري متوسطي لأن تونس تصوّرت أنه بإمكانها مساندة الكرسيكيين المعارضين للغزو الفرنسي. وقد اضطرت إلى التراجع عن ذلك بموجب معاهدة السّلم التي وقّعت عام ١٧٧٠ واستنبول لا تحرك ساكنا. إلا أن حمودة باشا نقض معاهدة السّلم مع فرنسا بطلب من «الباب العالي» احتجاجا على حملة نابليون على مصر. وفي ديسمبر ١٧٩٨، هاجم القراصنة التونسيّون كارلوفورت في سردينيا، وكان من بين الرهائن المسيحيين وعددهم ٨٢٣ عدد من الديبلوماسيين الأوروبيين. أما بعد حملة اللورد اكسموث (١٨١٦) فقد أصبحت الإيالة عاجزة عسكريا ومضطرة إلى الانخراط من موقع الضعف في المنظومة الدولية في المتوسط.

من «الحماية» الفرنسية إلى قصف حمام الشط:

لقد جاءت أولى أفواج القوّات الاستعمارية - التي زحفت على البلاد من الجزائر - عن طريق البحر. ومن البحر كذلك فرضت قوات «المحور» وقوات «الحلفاء» هيمنتها على البلاد في الحرب العالميّة الثانية وأثناء «حملة تونس». أو ليست الأحداث المأسوية الأخيرة التي انطلقت من الشرق والمرتبطة بنزاع الشرق الأوسط هي الهجوم الجوي على شاطئ حمام الشط وكذلك عمليات الاغتيال التي تلته في بداية الثمانينات! إن عودة الحبيب بورقيبة

على متن باخرة إلى ميناء حلق الوادي (١ جوان ١٩٥٥) هو ربّما الحدث السياسي السّعيد الوحيد الذي له ارتباط بالبحر، والذي كان بحق حدثا مشهودا في التاريخ المعاصر الذي أعقب التوقيع على اتفاقيات الاستقلال الداخلي للبلاد. وقد تحوّل ذلك الحدث الذي لن ينسى إلى ما يشبه الأسطورة في المخيال الوطني. ولهذا السبب، أراد الزعيم في السبعينات وقد تقدمت به الشيخوخة – إحياء تلك اللحظة الرائعة من الالتحام بالشعب، وذلك بإعادة تمثيلها بطريقة مؤثرة، وقد دام ذلك عدّة سنوات.

إن مجموع هذه الأحداث يكشف العلاقات الخلافيّة التي ربطت تونس في الماضي بالمتوسط. وقد ظل التطور الظرفي للكيانات المتوسطية التي رزحت تحت نيرها تونس لغير صالحها في أغلب الأحيان. وقد اعتبرت تونس أن المتوسط السياسي يفرض عليها دائما مواجهة لا تكل ولا تلين، إما مباشرة مع كيانات وطنية (البندقية، فرنسا ...) أو بصفة غير مباشرة عندما يتأثر البلد سلبيّا بتبعات النزاعات التي تقع بين التجمعات الإمبراطورية أو الإقليمية كالتحالفات الدوليّة.

انتشار الأفكار السياسيّة قبل «الحماية» الفرنسيّة:

ربّما كانت العلاقة العنيفة التي ربطت تونس بالبحر هي السبب الكامن وراء ظهور تيارين فكريين رئيسيين ظلاّ يهيكلان المجتمع السياسي و«المجموعة الوطنيّة» على امتداد أربعة قرون : هل يجب اتخاذ منحى استقلالي ؟ أم منحى عثماني ؟

إن هدفنا من وراء هذه الصياغة التي أردناها مكثّفة واختزالية هي تركيز التحليل على التمفصلات الإيديولوجية الأكثر أهمية، وليس القيام بكشف – هو معقد بالضرورة – لكل أشكال التفكير السياسي.

في أن تكون استقلاليا أو عثمانيا ؟

من السلطنة الحفصيّة إلى «المملكة» الحسينية :

منذ اندلاع الأزمة السياسيّة في عهد مولاي الحسن (١٥٢٥–١٥٤٣) التي كشفت عن النوايا التوسعيّة العثمانية وإزاء السّلطنة الحفصيّة، انقسمت تيارات الرأي إلى اتجاهين رئيسيين : إمّا الدفاع عن شرعية السلطان القائم (حتى وإن أدّى الأمر إلى تناسي انزلاقاته المساندة للأسبان) أو الاستجابة لنداءات «عرائس البحر» العثمانية (حتى وإن أدّى الأمر إلى التخلي عن السلطة لصالح نخبة جديدة أجنبيّة مدعومة من قبل حلفاء محليين). لقد ظلّ هذا التباين السياسي يشكّل المشهد السياسي لإيالة تونس ويعيد تشكيله باستمرار في المدّة اللاّحقة. وقد اختارت المدن الساحلية في غالبيتها منذ القرن السادس عشر الولاء للعثمانيين، في حين ظل الحفصيون يحظون في أواخر أيامهم بدعم المناطق الداخليّة. وفي القرن السابع عشر، كان الصراع بين الدايات والبايات مشحونا بهذا التوجه السياسي، إذ كان الدايات يعتبرون ذوي ميولات عثمانية أكثر من البايات المراديين الذين كانوا ميّالين على مستوى المشاعر والممارسات إلى الاستقلال. أما الحسينيّون في القرن الثامن عشر، فكانوا ينزعون إلى التباين عن استنبول رغم ارتباطهم بعلاقات وطيدة مع الإمبراطورية. إلاّ أنّ المقارنة بين سياستين مختلفتين : سياسة مصطفى خوجة وسياسة يوسف صاحب الطابع تكشف عن استمرارية ذلك الانقسام الإيديولوجي الذي يعود إلى قرنين من الزمن. وخلال حكم هذه السلالة، ظل الاتجاه الاستقلالي يسعى إلى إقناع البلدان الأوروبيّة بوجاهته، بينما عمل الموالون للعثمانيين على تعزيز التقارب مع استنبول. إلاّ أنّ هذا الوضع المتّسم بوجود مركزين للقوى ازداد تعقيدا بفعل تطبيق بعض السياسات الإصلاحية. إن الحساسيّة الموالية للعثمانيتين لن تزول إلاّ بالزوال القانوني للإمبراطورية العثمانية. وقد بيّنت ردود الفعل المختلفة (التي كانت تشق مختلف التيارات

السياسية) إزاء قضيّة الخلافة تواصل وجود تصوّر إقليمي للسيادة السياسية. وليس من الغريب في هذا المجال أن تصادفنا في القرن العشرين نفس المرجعيّات السياسيّة، سواء في شكل حركات الإسلام السياسي أو الاتّجاهات القوميّة العروبيّة التي كانت تعمل في صلب الحوض المتوسطي العربي والعثماني. كما أن المجتمع التونسي كان يتفاعل كذلك – نظرا إلى قربة الجغرافي من أوروبا مع الأفكار الجديدة والقيم القومية التي بدأت إرهاصاتها تظهر في صلب الفكر السياسي لبلدان أوروبا الجنوبيّة منذ اندلاع الثورتين الإنكليزية والفرنسية.

تخطّي الحركة الاصلاحيّة للقرن التاسع عشر للبعد المتوسطي للامبراطورية العثمانية

لقد تمثّلت الإصلاحات التي شرعت الإمبراطورية في تطبيقها منذ القرن السابع عشر في محاولة تطعيم المجتمع العثماني بتقنيات وكذلك بمؤسسات وأفكار سياسية وطرق تسيير مستلهمة من أوروبا. وقد تبنّى المصلحون على مستوى الولايات هذه الممارسات (أو كيفوها) بعد أن وقعت غربلتها عثمانيا. وبالنسبة إلى بعض الإيالات مثل تونس، فإن وجود علاقات ديبلوماسية قديمة مع أوروبا يسّر الاتصال المباشر بمصدر استلهام تلك الإصلاحات. وتنقسم الحركة الإصلاحية التونسيّة إلى تيارين فكريين رئيسيين : أولهما يعتبر الإصلاحات أداة لتجديد التقاليد الإسلامية، إلا أن الدّوغما الدينية المحافظة التي لا تقبل بسهولة «نفض الغبار» عنها كانت تشكل عائقا. أما التيار الثاني، فيعتبر أنه من الممكن إعادة النظر في قيم المنظومة المؤسساتية الإسلامية لكن دون المساس بأصولها المقدسة. وكان ابن ابي الضياف وخير الدين وبيرم الخامس ينتمون إلى هذا التيار الأكثر تجذرا من غيره. إلا أن إخفاقهم السياسي جعلهم ينقسمون بدورهم إلى صنفين : صنف عزّز التحامه بالإمبراطورية، وصنف راهن على تعزيز الأمة التونسيّة.

وكلّ من يعكف على تحليل الخطاب الإصلاحي التونسي والمفاهيم والأفكار التي وقع تطبيقها في أواسط القرن التاسع عشر، يلمس أهمية الاستلهام من الفكر السياسي الأوروبي المستورد من المتوسط الجنوبي. ومنذ أواخر القرن الثامن عشر، أصبحت الحريّة الشخصيّة والليبيراليّة الاقتصادية (ولم لا السياسيّة) والنظام الدستوري والفصل بين السلطات، تشكل مجموعة من المفاهيم التي تندرج ضمن حركة تشكيل الكيانات الوطنية في أُطر ترابية معينة. وإن الانتشار الواسع لهذه الأفكار الإصلاحية يجعل من المستعصي البحث لها عن أصول واضحة. ويبدو لنا أنّه من الأجدى محاولة فهم كيفية تمثّل تلك الأفكار وتكييفها أو معارَضتها من قبل مختلف مجتمعات حوض المتوسط. لقد خضعت كل المنطقة لتلك الإشعاعات الفكرية إلى درجة أنه يمكن الحديث عن قاسم مشترك يجمع بين كل النخب السياسيّة. لكن هل يمكن مع ذلك الحديث عن تناغم إيديولوجي أو حتى عن الوعي بوجود فضاء سياسي متوطسي ؟

إن المحاور التعبويّة التي اعتمدتها الحركة الاصلاحيّة التونسيّة هي النضال ضدّ الاستبداد والحكم الفردي («حكم الاطلاق») والمطالبة بدستور («عهد الأمان»). إلاّ أنّها خسرت المعركة منذ ١٨٦٤. وقد اضطرّت لفترة أن تتوقف عن بناء نفسها سياسيًا. وعندما نجح الاستعمار عقب الحرب العالميّة الأولى في استئصال حلم المحافظة على كيان امبراطوري، بدأت الفكرة الوطنية في التبلور غداة ظهور أولى حركات مقاومة المجتمع المحلي للاستعمار.

في إمكانية تبلور الفكرة الوطنية المرتبطة بالفضاء المتوسطي ؟

أحدثت عمليات الضمّ الترابي الاستعماريّ منذ أواخر القرن التاسع عشر ردود فعل مختلفة. وقد سادت البلدان العربيّة والعثمانية حالة من الذهول من جرّاء العجز السياسي – العسكري

على إعادة تشكيل موازين القوى. ويمكن أن نلاحظ أن التبعيّة لسيادة أجنبيّة أخذت في تونس تدعم تدريجيا فكرة التراب الوطني. وقد تجلّت الفكرة الوطنيّة في شكل تيّار بدأ يناضل لأجل الحدّ من سلبيات «الحماية» مثل مقالات جريدة «الحاضرة»[١٤] بذلك هيمنت على الأفكار السياسيّة حتّى بداية القرن العشرين فكرة الوطنية القابلة للتعايش مع الإدارة الاستعماريّة. وقد قوّضت الحرب العالمية الأولى هذا الوفاق الظاهري وغيّرت الأفكار التي تبنّتها النخب التونسيّة، إزاء السلطة «الحامية». وعجّل النزاع كذلك في وتيرة تنقل الأشخاص بين تونس وفرنسا مثل الجنود وكذلك العمال وحتى الجمهور الطلابي وإن بعدد أقل. وقد أشاع الإعلان عن نقاط ويلسن الأربع عشرة المدافعة عن حقّ الشعوب في تقرير مصيرها نفسا جديدا ومضمونا أيديولوجيا، فكانت النقلة النوعيّة في صلب الفكرة الوطنية. وجاءت القطيعة مع الخطاب السياسي للقرن التاسع عشر بظهور تونس الشهيدة (١٩٢٠) – وهي مرافعة نقدية حديثة من وحي الثعالبي[١٥]. وكذلك بتأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي. لكن رغم ذلك، يجب الإشارة إلى أن التفكير السياسي الذي وُلد في العشرينات (بمبادئه وكذلك بطرق عمله) لا يزال يندرج ضمن المرجعيّات الفكرية الأوروبيّة المهيمنة كذلك على الحياة السياسية في البلدان المتوسطية الأخرى. وقد أصبحت الفكرة الوطنية هي العمود الفقري للنّضال المناهض للاستعمار. وقد ازداد هذا النضال تجذّرا تباعا لازدياد تثبت الإيديولوجية الاستعماريّة بسياسة الضم الترابي (لا «الحماية»). وكنا أشرنا سابقا كيف أن مسألة الهويّة فرضت نفسها على الخطاب السياسي للنخب التونسيّة بعد ١٩٣٠. وقد تمحور الصراع الثقافي والسياسي حول فكرة الأمّة التونسيّة ذات اللّغة والثقافة والعمق التاريخي الذي يعود إلى البربر وقرطاج والإسلام. وكتب محمد البشروش (١٩٣٥–١٩٣٦) – على غرار آخرين – نصوصا دسمة حول الهويّة التونسيّة في مجلّة المباحث[١٦]. وفي عام ١٩٤٥ كتب كذلك محمود المسعدي في نفس المجلة :

«... إن إفريقية شرقية قبل أن تكون غربيّة، وإنّها ساميّة روحانيّة قبل أن تكون مادية آريّة. ونحن شرقيون، عرب ومسلمون كالعرب، وساميّون كاليهود، ولن نكون أبدا شيئا آخر ...»(١٧)

وهكذا ساد الخطاب حول الهويّة، وكانت الأرضيّة التي قام عليها أرضيّة فلسفيّة سياسيّة أوروبيّة، كما تمحور بصفة متوازية التصوّر عن المتوسط حول الانتماء الديني والثقافي. وقد أجبر الظرف المؤسّساتي والإيديولوجي كما بعد الحرب الوطنيين على مراجعة توجهاتهم الديبلوماسيّة، (مبادئ منظّمة الأمم المتحدة حول حقوق الشعوب، بعث جامعة الدول العربيّة، هزيمة الدول العربيّة أمام إسرائيل، بداية انقسام البلدان المتوسطيّة إما إلى موالين للمعسكر الغربي أو إلى موالين للمعسكر الشيوعي ...) فكان الانحياز إلى المعسكر الغربي والمطالبة باستقلال تونس بصفته أمّة وأرضا. لذلك بدأت الإيديولوجيات الوحدويّة (الإسلامية والعربيّة أو المغاربيّة) تتشظّى. وقد ظلّت اختيارات الوطنيين – بتأثير من زعيمهم الحبيب بورقيبة – هي نفسها تقريبا بعد الاستقلال.

ومثّل العقد الأول لما بعد الاستقلال مرحلة البحث عن مكانة ديبلوماسيّة بالنسبة إلى تونس التي كانت تتأرجح بين العالم العربي الإسلامي والبلدان الأوروبيّة والمتوسطيّة. وكان حجر الزاوية لهذه السياسة الخارجيّة هو الدّفاع الحازم عن الاستقلال الوطني وقد شعر بورقيبة بأن التهديد الأكثر خطورة كان متأتيّا من طابع الهيمنة للفكر العروبي الناصري. وقد غلب القطع على الوصل على العلاقة بين رجلي الدولة. كما أن الحركة البعثيّة كانت لا تقل خطورة عن الناصريّة في نظر بورقيبة. أما وحدة المغرب الأوسط، فقد ظلّت على الرفّ، إذ كان كل بلد يتمنّى أن يتولّى هو قيادة العمليّة الوحدويّة بنفسه (خاصة منذ ١٩٦٢). وقد وقع إغفال البعد المتوسطي العربي، لذلك اقتصر الانفتاح على المتوسط على الحوار التونسي الفرنسي ذي المسار المتعثر (أزمة الفرنك،

قضية بنزرت، تأميم الأراضي ...). وتسمح دراسة خطب السياسة الخارجيّة التي كان يلقيها بانتظام رئيس الجمهورية التونسيّة بالتعرف إلى الطريقة التي كانت تنظر بها السلطات التونسية إلى العلاقة بالعالم الخارجي وخاصة منه المتوسطي(١٨). وبعد ١٩٦٤، أي عقب اندلاع تلك الأزمة الخطيرة بين تونس وفرنسا، قامت الحكومة التونسيّة بحملة ديبلوماسيّة في اتّجاه البلدان العربيّة وتركيا واليونان ويوغسلافيا ... فهل كان ذلك بهدف تشكيل شبكة من العلاقات المتوسطية تكون «بديلا» عن الانغلاق في صدفة العلاقة المقتصرة على فرنسا ؟ لقد دلّت سلسلة الأسفار لبلدان المتوسط الشرقي والخطب التي ألقيت في تلك المناسبات أن المتوسط أصبح لأوّل مرّة مكوّنا من مكوّنات الفضاء الديبلوماسي التونسي. وقد أعادت تونس علاقاتها أو ربطت علاقات جديدة ببعض البلدان المتوسطيّة. إلاّ أنّ التعبير الواضح عن هذا التوجّه لم يقم به رئيس الدولة التونسيّة إلاّ عندما تحدث عن اليونان : فهل كان ذلك حديثا يتيما خرج من قاع الذّاكرة ؟ (ربّما بسبب ثقافة بورقيبة الفرنسيّة الكلاسيكيّة) أم هي رؤية للمتوسط من زاوية الأمم والتاريخ القديم ؟ ومهما يكن من أمر فإن المتوسط في ذلك الخطاب يبدو مخترقا بسلسلة من الحدود، ولا يمثل فضاء متناغما في الفكر البورقيبي، وإنّما مجرّد فضاء متكامل في أحسن الحالات. لكن نشعر رغم ذلك أنّ اعتماد المرجعيّة المتوسطيّة بدأ يبرز في تونس منذ أواسط الستّينات كما تدل على ذلك الكثير من المؤشرات نذكر من بينها مؤشرين على سبيل المثال. فوسائل الإعلام (الصحافة والراديو ...) أخذت تروّج مقولة «تونس ملتقى الحضارات المتوسطيّة»، كما أن لائحة السياسة العامة للمؤتمر الحادي عشر للاتحاد العام التونسي للشغل (المنستير، أوت ١٩٦٩) أشارت ولأوّل مرّة إلى «تونس المتوسطيّة»، فهل كانت المنظّمة النقابيّة تسعى من خلال توظيفها لموقع تونس الجغرافي في المتوسط لخدمة منحى معين ؟ لقد جعلت أولويّات التنمية من الضروري خلق منتوج سياحي، خاصة بعد أن تحوّلت السياحة إلى

مصاف القطاع الرئيسي للنشاط الاقتصادي.

تونس من زاوية الاقتصاد المتوسطي

مثّل الجانب الاقتصادي لعلاقات تونس المتوسطية سواء أكان ذلك الجانب محدِّدا (بكسر الدّال) أو محدَّدا (بفتح الدّال) مكوّنا أساسيًا من مكوّنات تصوّر ذلك الفضاء.

إقتصاد يرنو إلى البحر منذ القرن السادس عشر :

كان جزء كبير من السكّان ومن المدن الساحليّة يعيش (ولا يزال) من موارد الأنشطة البحريّة، وذلك على امتداد المسافة من عناية (التي كانت لا تزال تابعة للسلطنة الحفصيّة في القرن السّادس عشر) إلى جنوب جربة(١٩). وخلال القرون الثلاثة للعصر الحديث، كانت القرصنة مصدرا غير منتظم الموارد (وغير متساو من حيث الغنائم) بالنسبة إلى الحضريين والدولة. إلاّ أنّ الصيد البحري كان على العكس من ذلك. وهو النشاط البحري الخالص – يمارس من قبل الكثير من سكان السّواحل. وفي بعض المناطق كان البحر يُستغل كما يمتلك المزارعون أراضيهم، وإلى اليوم، توجد عائلات في قرقنة وجرجيس تمتلك «بحارها» (الشرفيّات)، كما يمثّل استغلال الملح البحري بالنسبة إلى بعض السكّان الآخرين موردا إضافيًا له وزنه. إلاّ أنّ التجارة البحريّة تظلّ هي الركيزة الأساسيّة للاقتصاد التونسيّ، وأهمّ آصرة تشدّه إلى الفضاء المتوسطي.

وليست بنيّة التجارة البحريّة –وخلافا لما توحي به المظاهر– مجرّد حركة توريد وتصدير تنوّعت حسب الزمن من حيث المضمون والكم. لقد كانت عمليات التبادل متنوعة وتشكّل حلقات تجاريّة متكاملة. والمثال الأوّل على ذلك المنتوجات الحبوبيّة للشمال الغربي للبلاد التي عوّضت تجارة المرجان منذ بداية القرن السابع عشر. وقد أمّنت كل من طبرقة ورأس النيقرو (تمكرت

سابقا) هذه التّجارة على إمتداد قرنين من الزمن. وقد مثّل ذلك المصرفان التجاريّان اللّذان كانا بأيدي الجنويين والبروفانسيّين همزة وصل حقيقية بين جزء من الاقتصاد الزراعي للبلاد والتجارة المتوسطيّة. أما المثال الثاني، فهو مثال صنع الشاشية التونسيّة (غطاء رأسي مصنوع من الشاش) وتصديرها. وقد شهدت هذه الصناعة الحرفيّة زخما كبيرا بداية من القرن السابع عشر. وهي تقوم بتفعيل عدّة مسالك اقتصاديّة : تعبئته رؤوس الأموال لشراء الأصواف الإسبانية والمواد الملوّنة من بروفانس وجنوة والقرنة وتوريدها إلى تونس. وهذه «الشواشي» – التي تحوّل إلى قبعات (في إطار نظام الاقتصاد المنزلي) في جهات مختلفة من البلاد، يصدّر جزء منها على متن السّفن الأوروبيّة إلى كامل المتوسّط الشّرقي. وتنفق المداخيل المتأتيّة من ذلك في اقتناء بضائع الترف والمواد الأوليّة التي تحتاجها بعض المنتوجات النسيجيّة الأخرى، وكذلك في شراء منتوجات من أوروبا ومن مستعمراتها كان يبيعها التجّار الأوروبيّون في الشرق الأدنى بثمن أقل مما كانت تباع به في تونس. لذلك، يمكن القول إن المصالح التجاريّة حوّلت الإيالة إلى قاعدة تجاريّة متوسطة والحق يقال – لكنّها ضروريّة للاقتصاد المتوسطي. وكان معاصرو تلك الفترة (رؤساء القبائل المنتجة للحبوب، التجار وأعوان الدولة) على وعي تام بأهميّة الوشائج التي تربطهم بممثّلي الاقتصاد البحري. وقد تدعّم انفتاح الاقتصاد التونسي على البحر في القرن التاسع عشر وخلال الفترة الاستعماريّة. وجاء الانزياح الحتمي للمناطق الاقتصاديّة الأكثر حيويّة وللمدن الأكثر سكانا نحو السّواحل يكرّس ذلك الاتّجاه الذي بدأ بالتبلور منذ أربعة قرون. وفي القرن التاسع عشر شهد الإنتاج الدّاخلي ركودا والمداخيل المحليّة للدولة تناقصا، لكن ازدادت بصفة متوازية، مداخيل الدولة المرتبطة بتجارة التصدير ارتفاعا. وفشلت محاولات خلق صناعة كبيرة على غرار مصنع «الملف» بطبرية، لكن السّلطة الاستعماريّة نجحت في ربط جزء هام من الاقتصاد التونسي باقتصاد الميتروبول،

وذلك ببعث قطاع رأسمالي مهيمن على باقي الأنشطة الاقتصادية. وخلال قرابة السبعين سنة، ظلّت تونس منفتحة على الاستثمارات الفرنسيّة، لكن كان ذلك كلّه تقريبا لفائدة الجالية الفرنسيّة وشبكة المصالح الاستعماريّة[٢٠]. وتظهر تبعيّة البلاد بصفة جليّة من خلال عجز الموازنات التجاريّة. لكن رغم ذلك، وقع دمج تونس – على غرار البلدان المتوسطيّة الأخرى – في «الاقتصاد – العالم» الأوروبي حسب عبارة فرنان برودال وإيمانوال والرّستيين (Wallerstein). وهكذا فإن سيرورة الإلحاق ثم الإدماج التي انطلقت منذ القرون السّابقة اكتملت تماما في القرن العشرين. ومع الإعلان عن الاستقلال، تغيّرت أطراف الرهان، لكن الهدف ظلّ نفسه. ومنذ ١٩٥٦، ظلّت كل السياسات الاقتصادية المطبقة (اللبيرالية أو الاشتراكية الدوليّة) تهدف – رغم انشغالها بمشكل التنمية – إلى الانخراط في المنظومة الأوروبيّة (على غرار المناطق المتوسطيّة لأوروبا) وإلى تعبئة كافة الإمكانات الاقتصاديّة للبلاد لتمكينها من تقليص الهوّة التي تفصلها عن المناطق الموجودة شمال المتوسط. ولقد تجسّدت استراتيجيّة الجوار الاقتصادي هذه في شكل معاهدات تفضيلية وقع توقيعها مع المجموعة الأوروبيّة وذلك في أوج الحرب الباردة. ومنذ أواخر الثمانينات، وخاصّة منذ انهيار جدار برلين، أصبحت أوروبا تنظر إلى المكانة الاقتصادية للمتوسط نظرة مغايرة : لقد ولّى عهد التنافس بين المعسكر السّوفياتي والغرب، وحلّت محلّه المواجهة بين الاقتصاديات الرأسماليّة التنافسيّة، فالاتحاد الأوروبي أصبح يرى في المتوسط تخوما لابدّ من التمسّك بها بصفتها فضاء استراتيجيا (مصادر طاقة، سوق كبيرة ممكنة)، أما الولايات المتحدة الأمريكية فإنها لا تريد التخلي عن منطقة بإمكانها محاصرة أوروبا رغم أن المتوسط لم يعد يمثّل شيئا تقريبا بالنسبة إليها على المستوى الاقتصادي. وإذا كانت الاستراتيجية بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة هي الاستثمار أقل ما يمكن، فإن المجموعة الأوروبيّة – وبواسطة معاهدات شراكة ترمي في المستقبل القريب إلى بعث مناطق تبادل

حر – تسعى إلى هيكلة سيطرتها على الفضاء المتوسطي بطريقة أفضل، وذلك بتوسيع شبكاتها الاقتصادية. وكانت تونس – التي تلعب ورقة البراغماتية السياسيّة والاقتصاديةّ أوّل بلد متوسطي يوقّع مثل تلك المعاهدات مع أوروبا.

إنّه من ناقل القول إن تونس بلد متوسطي بفضل جغرافيته وتاريخه وإن المتوسط هو فضاء التبادل الوحيد بالنسبة إليها. إنها بلد تحدوه اليوم طموحات سياسيّة واقتصادية واجتماعيّة تجعله يسعى إلى الاندماج الإيجابي في الفضاء المتوسطي. فهل تكون السيرورة التي انطلقت من برشلونة عام ١٩٩٥ هي الأداة التي ستمكنّها من التحول إلى ذلك الكيان الذي تبغيه ؟ إنّ التوجيهات الرئيسيّة الصادرة عن برشلونة والتي أيّدتها تونس تتلخّص فيما يلي :

– شراكة اقتصادية ومالية بهدف خلق منطقة تبادل حر وتعاون

– شراكة سياسيّة تهدف في المقام الأوّل إلى إرساء الأمن

– شراكة في الميادين الاجتماعية والثقافية والانمائية ترمي إلى تحسين مستوى التعليم ومنزلة المرأة وتعزيز المجتمع المدني[٢١].

والأكيد أن هذه الأهداف الواردة في ميثاق برشلونة لا يمكن تطبيقها بتزامن من قبل كل البلدان الموقّعة على البيان. فكل بلد مطالب – لكي يتجاوز ما يعانيه من مصاعب – بأن يحدّد أولوياته لكسب الوسائل التي سيتيحها له هذا «التوجّه المتوسطي» والنتائج المتوقع جنيها منه – وهنا يمكن أن يؤدي تناقض المصالح وتعارض الدول الوطنية إلى الكبح من جماح هذه السيرورة. والمؤشّر الذي يعتبر ناقوس الخطر هو ظاهرة الحدّ من تنقّل البشر. فالتضييقات المفروضة منذ خمسة عشر سنة تقريبا على تنقّل الأشخاص بين مختلف بلدان المتوسط وأوروبا (وكذلك بين البلدان غير الأوروبيّة) من شأنه أن يكرّس فكرة انقسام البلدان

المتوسطيّة إلى كيانات متناحرة. وقد يكون لهذه القرارات السياسيّة ما يبررها (بالنظر إلى الظروف الداخليّة والخارجيّة في وقت معيّن)، لكن لا يمكنها بأيّ حال من الأحوال أن تؤسّس لعلاقات على المدى الطويل. وقد لاحظت بعد في بعض البلدان ومن خلال ما يجدّ من حوارات اجتماعيّة اقتصاديّة أن إرادة التحكم المتشدّد في حركات الذهاب والإياب بين الضفتين لا يمكن أن تؤتي أكلها بالقدر المرغوب. ولا يمكن التسريع من جهة في تبادل السّلع والمنتوجات وفي إذاعة الصوت والصورة على نطاق واسع، ومن جهة ثانية إلزام البشر بملازمة أماكنهم لا يبرحونها.

إن الفضاء المتوسطي الجديد بصدد البناء، وهو نتاج السياسة الأورو–متوسطية، لكنه قائم كذلك على الانتماء الطوعي للدول، وهذا يستلزم ألا يكون تحقيق ذلك الهدف على حساب البعض ولصالح البعض الآخر[٢٢].

الحواشي

(١) عبد الرحمن بن خلدون، المقدّمة، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٩٧، ص ٣٥ ؛

(٢) نفسه ص ٤٥ ؛

(٣) Zouhir Chelli, La Tunisie au rythme des cartes géographiques, Cahiers du C.E.R.E.S., Série Géographie, 14, Tunis, 1996, p. 122-129, 143-144 ; Hassen Annabi, Mounira Chapoutot - Remadi, Samia Kamarti, Itinéraire du savoir en Tunisie, Paris, 1995, p. 84-85 ; Tahar Mansouri, "Le portulan d'Al-Charfi et la cartographie méditerranéenne", نص مطبوع، نشكر المؤلف على توفيره لنا ;

(٤) محمد ابن أبي القاسم ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، المكتبة العتيقة، ١٩٦٧، ص ٧ و٢٠ ؛

(٥) محمد بيرم بن مصطفى التونسي، القطر التونسي في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تقديم علي الشنوفي، تونس، بيت الحكمة، ١٩٨٩ ؛

(٦) محمد بن محمد الأندلسي الوزير السرّاج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٧٣، ص ٢٠٨-٢١١ ؛

(٧) نفسه، ص ٢١١ ؛

(٨) خير الدين التونسي، أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق المنصف الشنوفي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٢ ؛

(٩) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، كتابة الدولة للثقافة والإعلام، تونس ١٩٦٣، ٧ أجزاء ؛

(١٠) Jean Fontaine, Ecrivaines tunisiennes, I.B.L.A, تونس ، ١٩٩٠، ص ٦٧-٦٨
"Le centième roman tunisien : Zahrat al-Sabbar de Alia Tabai", I.B.L.A, 168,٢٣١ ١٩٩١، ص ;

(١١) علي الدوعاجي، جولة بين حانات البحر المتوسّط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٣، نشرت هذه الرواية مسلسة على حلقات بدءا بالعام ١٩٣٥ ؛

(١٢) V. Brami (éd.), XXXème Congrès eucharistique international de Carthage (7 au 11 mai 1930), د. ت. نانسي (فرنسا) ;

(١٣) علي الدوعاجي، المرجع المذكور ص ٤٩–٥٥ ؛

(١٤) علي العريبي، «الحاضرة»، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٩٥، ص ١٤٦ و٤١٠ ؛

(١٥) Abdel-al-Aziz Thaalbi, La Tunisie martyre, Epinay - sur - Seine, Jouve, ١٩٣٧ ;

وانظر «تونس الشهيدة»، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥ ؛

(١٦) عبد الحميد سلامة، محمد البشروش : حياته وآثاره، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٨ ؛

(١٧) محمود المسعدي، «تأصيلا لكيان»، في «المباحث»، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٥، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٩ ؛

(١٨) الحبيب بورقيبة، خطب، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٥، ج ١٣ ؛

(١٩) بما أنّ ليس غرضنا، في إطار هذه النظرة الموجزة، أن نبحث في التاريخ الاقتصادي لتونس، سوف نكتفي بإيراد بعض الأمثلة الدّالة على ما نذهب إليه.

(٢٠) Ahmed Kassab, Histoire de la Tunisie. L'époque contemporaine, STD, تونس , ١٩٧٦ , ص١٣٠ ;

(٢١) صحيفة Le Renouveau، تونس ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥، ص ١٠ ؛

(٢٢) أتوجّه بالشكر للأستاذ الهادي التيمومي لمراجعته ترجمة هذا النصّ.

آمنة بلحاج

كيف نبني على مشهدٍ بحريّ

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

المتوسّط : سُلطانُ عِبارةٍ يصدحُ في كنفها نشيد الطفولة. نغمٌ يسعى لبلوغ السماء، ثمّ يهبط منها إنسيّاً، ألوفاً، كما ليهدهدكَ ويواسيك. تُلفَظُ العبارة فإذا في كلّ مقطعٍ صوتيّ منها أقامَ مشهدٌ، ذكرى، خشيةٌ أو رجاء. وماءٌ إلى ما لا نهاية، وفي مركزهِ أرضٌ مدفّأةٌ بشمسِ الظهيرة.

متوسّط. إنّه، بدايةً، مساحةٌ وُجِدَت لكي يبحرَ منها حلمٌ، منزلقاً على طول الدربِ الذي ابتكره لذاته، قبل أن يصمّمَ على اتّباع سواه – طليقاً – لأنّ الماء، كما نعلم، هو الحرية جُعِلَت عنصراً. يرسم الحلم خيالاً على صفحةِ الماء، ثمّ يغادرها راحلاً لكي ينضمّ إلى أعماق البحر.

إثرَ النغمِ الطفوليّ توّاً، يعيدُ إليّ صخبُ الأمواج صدى الحروب والمشاجرات القديمة، ومحطّات التوقّفِ والانطلاق في تاريخ المعارك والنزاعات. كما عبر سلسلةٍ من القطع المثقوبة والموصولة، تسلك هذه المغامرات المتصلة دربها إليّ. أبذل أشدَّ ما أطيق من الجهد وما تبقّى لي من الذاكرة لكي أفرّق بين العصور، وبين الأبطال، وبين الهزائم والانتصارات، بين الأماكن الأثيرة واللحظاتِ المأثورة. غير أن المتوسّط، كما يدلّ اسمه، هو تاريخٌ سائل. إنّه عكسِ بنايةٍ من طبقاتٍ يكفي أن نختار الزرّ الذي نضغطه لكي يتوقّف بنا المصعد في المكان المطلوبِ والذي انطلاقاً منه نتوغّل في طبقات الزمن. البحر هو عكس المتحف حيث تحمل كلّ ردهةٍ اسماً أو رقماً ويفتح أمامكَ ثبتاً بمحتوياته من الأشياء.

لذا تستحيل ذاكرتي ذاكرةً بحرية. تهبني زرقةً ذائبةً حيث تتلاقى الهويّات، ويتعاظم بعضُها من بعضٍ من دون أن أشعرَ، في أي وقتٍ بالحاجةِ إلى الرجوعِ إلى كلّ حفنةٍ من ماضيّ المتوسطي لكي أفصلها عن البقية وأجعلها كياناً على حدة.

*
* *

أفضّل أن أبقى واقفةً لكي أتطلّع إلى البحر. إنّه يبسط أمام ناظريّ حكايات متشابكة ويدير الوقتَ والسِّيَر التي رعاها، وتلك التي ما زال يرعاها – ومن بينها سيرتي، كحبّة رملٍ ضئيلةٍ في منبسطٍ رمليّ شاسع. طبعاً، أنا لا أهوى رؤية الأشياء على هذا النحو. لذلك أبقى واقفةً لكي أشعر بأني حيّة؛ لكي لا أدخل في الوقت الذي انصرمَ ولكي لا تعصفَ بي الدوّامة التي تودي بكلّ شيءٍ في طريقها. أنتصب واقفةً هنا قبالة البحر وأحدّقُ في عينيه. فعندئذٍ فقط يعيد إليّ دورةَ زمن العالم، من دون أن يبدّدني. إنّه يتيح لي الانزلاقَ على صفحته بحركةٍ رقيقة تنشر عطراً على مواضع الألم من الجسدِ والروح.

*
* *

أدخلُ دارةً قديمة، واجهة على البحر: أساساتٌ تأكّلتها الرطوبة، وتساقط جصّ الأسْقُفِ المزدوجة رقاقاتٍ من غبار، مطرّقةً بالموجِ مقاومةً خرابها. واقفةً إلى النافذة، أتطلّع إلى البحر.

إنّه اليوم باذخٌ بالنور، لكنّه أصمّ أخرس. يكاد الهدير الحيّ، المتردّد، للمويجة الأخيرة التي تلامس حصى الشاطىء، ألاّ يتناهى إلى مسامعي المتنبّهة. أشعر بأنّ صمته قسريٌّ، وبأنّه يتمالك نفسه ويتكتّم. وأحسبُ أنه في القاعِ، في أعماقه الرمادية، يغلي. أستشعر المعركة الطاحنة التي تخوضها التيارات والنزعات التي تعبره، التجاذبات التي لا تهدأ، الحركات في كلّ اتجاه، الكائنات التي لا تحصى والطوّافة حول نفسها أو موجّهةً طاقتها بحيث تصطدم بطاقة تجاورها ثمّ موغلةً في بدَدِها في كنفِ الاتساع السائل. غير أنّ شيئاً من هذا الغليان الجوفيّ لا يظهر على السطح. هدوءٌ جليلٌ يتبدّى على صفحةِ مياه لم تكد تعكّر صفاءها رعشةٌ خفيفة للحواف الرملية التي ترسم الحدود الساكنة بين أرضٍ وبحر. يتراءى لي أنني أسمع همساً يسعى هذا المتوسّط الصامت لأن يكتمه في أعماقه.

دائماً عند نافذتي، في الدارة نفسها، بمضيّ ساعة واحدة. تغيّر المشهد. أصواتٌ تتناهى أخيراً مثل همسٍ تحرّر من الكتمان معيداً للبحر صخب حياته. إنّهم صِبيةُ الضواحي الشعبية لتونس، صبية الأحياء الفقيرة الذين قدِموا مثل إعصارٍ، ممشوقي القامة، نحيلين، ضامرين، مفرطين في حيويتهم، عراة الجذوع، سمر البشرة. إنهم يومئون ويرقصون ويتصايحون وينشدون أغنياتٍ لا أعرفها، ويتقاذفون كراتٍ من الرمل الرطب، ثمّ يرمون بأنفسهم في المياه. في المياه تحدث أعجوبة. البحر وحده يمتلك القدرة على تحويل خصلات الشعرِ إلى واحةٍ ضاحكةٍ برّاقة. وحده البحر له رقّة أن يستحيل عرزالاً ليظلّل أيامهم في أوقاتِ القيظ والشمس الحارقة. وبدرجة ملوحته المرتفعة يحملهم إلى أعلى، بالمعنى الكامل للعبارة. يمحو فظاظةَ هؤلاء الفتيان، وينتصر على بؤسهم. ويخرجون من هذه المياه الباذخة، برّاقين، كأنّ المتوسط لطالما كان لباسهم، كما لو أنه جُعِلَ على مقاس أجسادهم فتلبّس أسرارها.

ألهذا السبب سوف يلتفت هؤلاء الفتيان أنفسهم، وبمضيّ بضعة أعوام، إلى هذا البحر نفسه، تحدوهم الرغبة في اجتيازه لبلوغ الضفة الأخرى، قاصدين تلك البلدان التي يخيّل لهم أنهم سيعثرون فيها على العمل والمال، لكي يرسلوا لأسرهم ما يعينها على تحسين ظروف عيشها ؟ بين هذه الأمواج سوف يسعون لشقّ طريقهم ويرحلون كما يقال لكي يختبروا حظوظهم. ويُفترضُ أنّ المال الذي سيجنونه في البلدان الأكثر يسراً، في الجهة المقابلة للمياه، مال الهجرة، سوف يعود عبر أو فوق المياه التي تمحو المسافات والهجرات. وبوصوله يجلب معه بعضَ الرغَد.

غير أن أبواب البحرِ تُغْلَق والبحر يغدو حدوداً.

المتوسّط يغدو أقلّ استجابةً للوعود، وأشدّ صفاقة. إنه يلفظ هجرة البشر. والاتساع السائل بات زاخراً بالشكوك. الحلم المتحرّك يغرق على الشاطئ. تنخفض الحصص، وتندر الأعمال، والاندماج

عسير، والطرد يكاد أن يصير هو القاعدة.

والبحر، وحده البحر سيواصل حراكه. حركة أمواجه تتواصل بلا هوادة. حركته وحدها هي التي تبقى عندما يتراءى أن حركة البشر قد هدأت.

* * *

منذ ثلاثة أو أربعة عقود لم يكن الأمر على هذه الحال : إذ لم يكن المتوسّط إطلاقاً هو متوسّط مآسي الشبّان الذين يرتمون في هذا المضيق أو ذاك من مضائقه ساعينَ لبلوغ الضفّة الأخرى والذين لا يجدون في عبابه إلاّ قسوة أنيابه. فمنذ ثلاثة أو أربعة عقود من الزمن، كان المتوسّط بالنسبة للشبان التونسيين والفتيات التونسيات، من جيلنا، زاخراً بالجاذبية والوعود. كنّا نحمل شهادة البكالوريا، وكانت تلك رأسمالنا، ونستعدّ، بأعدادٍ كبيرة، لعبوره كيما نقيم صلةً بالمعرفة، كيما نكتشف الحداثة، ونعاين عن كثب مظاهر التقدّم في الميادين كافّة، ونملأ صدورنا بنسائم الحرية.

كنّا نتهيّأ لاجتيازه لأننا كنّا نبحث عن كياننا، ولأنّ هذه المغامرة كانت تندرج في المجال المتوسّطي، ولأننا كنّا نحسب، لحداثة سننا، أننا نحتاج إلى إقامة في الجهة المقابلة للمياه لكي نملّي أعيننا وقلوبنا بكلّ ما هو ضروريّ للانطلاق مجدداً، بثقة، لدى عودتنا إلى ديارنا وإخصاب كلّ المناظر، لكي نبعث حياةَ أهلنا في الوجهة التي كنّا نحسب أنها وجهة التاريخ. ذلك أنّ التاريخ، وقتئذٍ، كان زاخراً بالمعاني. كان زاخراً بما يفيض من المعاني. وكنّا نهمين لمعانيه، نظراً لأننا كنّا نبحث عن نقاط انطلاقٍ جديدة ونبحث عن نحوٍ جديد لوجود أهلنا في هذا العالم. كان الأمر بمثل هذه البساطة. بمثل هذا التعقيد.

لم يكن أحد ليقدر على الحيلولة دون إيماننا بأنفسنا، وإيماننا،

في الوقت نفسه، بالمنهلِ الذي كنا نأتي لننهل منه في مدنِ الضفّة الأخرى التي كانت لنا بمثابة بؤرة العالم. كانت المعرفة، والأفكار، والنظريات، والنُظُمُ تُبذَلُ لنا وكان الأمر طبيعياً. فالحياة والذهن كانا في أعيننا أهمّ بكثير من المال.

لأننا ولدنا في مجتمعات وُسِمَت بفتراتٍ طويلة من التخلّف، كنّا متمرّدين على أهلنا الذين كانوا يمثّلونها على نحوٍ ما. وما كنّا نخشى حقيقة أننا متمرّدون. غير أننا كنّا متجبّرين، شديدي الثقة بأنفسنا، بالغي القسوة تجاه أسلافنا. ولم نكن على بيّنةٍ من كلّ الظروف، فننساقُ، في الأغلبِ، إلى دوّامةِ الإيديولوجيا ولا نراعي أحداً. ومع ذلك كنّا مقتنعين بقدرة أهلنا على الاهتداءِ إلى سبلِ الحضارة والمعرفة اللتين برعوا في مجاليهما ذات يوم. كنّا واثقين، على نحوٍ ما، أنّ مراكبنا محمّلة بالوفير من الثروات، تلك التي أغرقها الزمان بسباته، وكنّا على قدرٍ من الاعتبار للعنصر الإنساني بحيث أنه لم يخطر ببالنا لحظة واحدة أننا قد نوصم بالدونية. لقد أقمنا على ازدواجٍ لغوي لم يكن يسبّب لنا الدوار، بل تمكّنا في آخر الأمر أن ندرك مَن نكون نحن، حلقةً في سلسلةٍ طويلة من محطات الوصول والمغادرة، والغزوات والفتوحات، والضمّ والجوار. وما كنّا لنقبل بالتنكّر لجمال سماواتنا، وفتنة حكاياتنا، وسحر طفولاتنا.

لم يكن لدينا، على الإطلاق، مطلب هويّة ملحّ. ولم يعرف عنّا انحيازٌ لهويتنا بوصفها السمةَ المُعتَلِمة، المقفلة، القدرية، التي رسمتها، مسبقاً، سنّة الماضي والأسلاف. كنّا نودّ أن نأتي بالجديد، كنّا نودّ أن نرتجل، أن نخترع مصائر أخرى وحتّى أن نعثر على معانٍ أخرى لمصائر أسلافنا. لِمَ لا ؟ كان ذاك حقّنا الأكثر ثباتاً والأكثر إطلاقاً، ذاك الذي كنا نودّ أن ندافع عنه، أكثر من سواه.

والبحر، سواء عبرناه على متن مركبٍ أو طائرةٍ أو فقط على متنِ حلمٍ، كان بامتيازٍ هو المكان الذي يتبدّد فيه ضيق الحدود، حيث

يتدفّق طليقاً سيل الوعي المتيقّظ للذات وللآخر. من الشمال إلى الجنوب، ومن المشرق إلى المغرب، كنّا ننظر إلى هذا المتوسّط البنفسجي أو الفيروزي كعنصرٍ مُخْصِب، مفرّق وموحّد في وقتٍ معاً، كمعبرٍ متعدّد الاتجاهات للأفكار والقيم والمشاريع، كحبرٍ من شأنه أن يسهم في تدوين حكاياتٍ جميلة.

في ذلك الوقت كان متاحاً الدخول في عوالم متعدّدة وتملّكها رمزياً أو على نحوٍ متخيّل، الأمر الذي كان، بأية حال، كافياً لنا، طالما أنّ كلّ ما يبدو لنا جميلاً وحاداً وسخياً هو ملكنا بالمعنى الكامل، لمجرّد أنه ينتمي إلى ما هو إنساني. أي لمجرّد أنه من صنعِ الرجال والنساء الذين كنا نقرأ تاريخهم، ونحلّل أسلوبهم، ونعلّق على خياراتهم. هكذا، كانت أبرز وجوه الفنّ والأدب والسياسة والعلم تغدو على قدرٍ من الألفة لأذهاننا بحيث أنها كانت تجسّد شمولاً لا عِرقَ له، ولا لون، ولا أتنية، وفيه لا حدودَ فاصلة بين أقاليم الداخلِ والخارج. فعلى نحوٍ ما كانت انتماءات كلّ واحدٍ منا متعدّدةً وما كان أحدٌ ليَعْجَب لمثل هذا التعدّد.

لا بل ربّما كان ذلك يحصّن النظرة إلى الذات من مراعاةٍ ما، والنظرةَ إلى الآخر من عداوةٍ ما. حتّى الوعي كان ينزاح، وكان ينبني في إزاحة زوايا النظر، سعياً لاجتياز التقاليد، وأرض الانتماء، والإيقاعات، والمواريث والأنساب، معرّضاً لتأثير كلّ طبقةٍ من دون الاضطرار، في كلّ لحظة، إلى إشهار القيود، والفهارس وجداول الانتشار، بل أحياناً عبر ابتكار أشكال التواطؤ والتبادل ما بين الصخبِ المحتدمِ للحواضر الكبرى الممتلئة بالتحديات، حيث لا أحد يعرف أحداً وبين همسِ الرَدبِ حيث كلّ حركة وكلّ نظرة معلومة وملحوظة من قبل الجميع، وحيث الجميع يعرف الجميع.

بهذا المعنى كان المجال المتوسطي الواسع، عمومياً وخاصاً. كان يبقي على الأماكن المظلّلة والصميمية للذاتية، مع ترحيبه بفكرة الانفتاح كمكوّنٍ لما كنّا نحسبه نسق العالم. كنّا، في

الحقيقة، مقذوفين في غمرة انخطاف مثلّث، انخطاف السنّ والعصر والبحر الأبيض المتوسّط التي كانت هي انخطافاتنا.

*
* *

مضى أكثر من ثلاثين عاماً. ثلاثون عاماً، لها، بالطبع، أثرها على بشرة ووجه وعضلات وشرايين ومفاصل فردٍ وعلى أحلام جيل... غير أن أثرها طفيفٌ على زمن العالم، على زمن المتوسّط.

أعود إلى نافذتي في الدارة نفسها. إنها الرابعة عصراً. غادر السبّاحون الفتيان. كانوا مبتهجين غير أنهم خلّفوا في قلبي كآبة. بصري معلّقٌ على بحرٍ استردّ عزلته. أجواء ألوفة تتناهى إليّ من داخل الدارة. تردّد في أذني أنغاماً متتاليةً في إيقاعٍ متشابه ومختلف. ما من صفةٍ قد تصف الحيوية التي يهبني إيّاها مجدداً ذلك النغم. أحلّق بصحبته : المتوسّط مرئياً من السماء، ليس قبل ثلاثين عاماً، بل قبل ثمانية قرون. في حركةٍ متهادية، يحملني المألوف مبحراً باتجاه أندلس الشعراء والفلاسفة، القلب النابض لمتوسّطٍ مزدهر، متدفقاً من ضفّة إلى أخرى، وفي وقتٍ معاً، بالمهاجرين وسيول العلم والرفاهية والتقنية.

أواصل إبحاري تدفعني الحيوية نفسها فتفضي بي إلى أبعد من ذلك، في الزمنِ السحيق، إلى نوميديا الفرسان المحاربين، رهينة التحالفات والثورات وأحداث التفرقة.

ثمّ يتراءى لي هناك شيءٌ لامعٌ، مفرطٌ في قربه ومفرطٌ في بعده، كنقطةٍ مضيئةٍ في ريحِ رمل. إنه مكان مأهول ببناةِ إمبراطوريات، وقادة حرب، وملاحين وغزاة. إنها قرطاجة المتوقدة الذهن الناشطة، المغزوة المحرّرة، المدمّرة المنبعثة من خرابها.

ولكن في الخلفية، بربريّ قرطاجيّ ويوناني ولاتيني، يهوديّ

عربيّ وإسلامي مسيحيّ، مؤمن وملحد، قدري وفوضويّ، لامبالٍ، تاجرٌ وحاذق، متوسطيّ أنا، ليس جميلاً إلاّ لأنه متعدّد. وفيّيون (Villon) المذهل عرفَ كيف يدعو الله أن يغفر لنا كلّ شيء. وإذا كانت سمائي اليوم تقدر أن تقاوم غمامة الضجر، والموت والنسيان، فلأنها مزدانة بنجومٍ غريبة، متجاورة متضامنة، ولا هوية في ذاكرتي التي تتأبطها سوى هوية إسهامها في إيجادِ فكرةٍ ما لما هو إنساني.

* * *

مولودةٌ من البحر، كلّ ذكرى تطلق نغماً فريداً وينبغي الإصغاء إليه. غير أن الذاكرة لا تتحدّث إلاّ بصوتٍ خفيض، سواء عدنا بها إلى عقودٍ خلت، أو إلى قرونٍ من الزمن أو إلى آلافٍ مؤلفة من السنين، وسواء أقلعنا باتجاهِ هذه المحطّة أو تلكَ من المسار الزمنيّ. ألأنها تحتوي نداء الحياة هذا الذي يستسلم لهدهدة هدير الموج ؟ ألأنها تهوى الابتراد بملمس ماءٍ بحريّ جعلَ نفسَه صدىً لضجيج الوجود ؟

مهدّبة بالزبد، معطرة باليود والطحلب، مشبعة بالأساطير، تواصل رؤيتي دربها الأزرق في صميمية وعمق الصلة بالذات، وليس في شِعابِ تاريخٍ وجغرافيا راسخين.

تصورات البحر الأبيض المتوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

عندما نتكلّم على المتوسط، لا نتكلّم على الشيء نفسه إذا نظرنا إليه من إيطاليا أو أسبانيا أو اليونان أو فرنسا أو مصر أو لبنان أو المغرب... ذلك أن تصوّرات المتوسط بنيت في كلّ مكان من هذه الأمكنة على طبقات تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الغرض من هذا العمل «تصوّرات البحر الأبيض المتوسط» هو استكشاف هذه الأنساب المتنوعة لفكرة المتوسّط.

...وص ليست سوى نتاج عمل عشرة باحثين وعشرة كتاب من ...توسط هي المغرب وتونس ومصر ولبنان وتركيا واليونان ...ا وفرنسا وألمانيا مدة سنتين لاستكشاف متخيّل هذه ... الذهنية ...لة، والأصداء التي يوقظها ذكر هذا البحر ... ثلاث قارات، وثلاثة أديان كبرى وتنوع قلّ مثيله من اللغات والثقافات. المتوسط كبحيرة سلام، أو، على العكس، كأفق لمواجهة محتملة؟ ... انفتاح أو حدّ انطواء؟ قيم مشتركة أم احتدامٌ للفروق؟ والتساؤل نفسه، من شأنه أن يثير الاهتمام أو الازدراء أو الحذر...

الصادق بوبكر ... مؤرخ، مختص في تاريخ تونس والعلاقات التجارية والمالية في المتوسط في العصر الحديث. ومؤلف عدد من الكتب والمقالات.
آمنة بلحاج يحيى درست ودرّست الفلسفة في باريس وتونس. لها عدد من المقالات والروايات وأحدثها عهداً (Tasharej, Balland, Paris, 2000).



ISBN: 9953-422-44-3

THALASSA